من نظرات لاروشفوكوله

٢ – نظرات في النفس والحياة

١ — ما كانت الفضائل تستطيع أن نعزو لها مكاناً في العالم كما عرفت لولا إنها كثيراً ما تكون ممزوجة في أنفس أصحابها بشيء من الاعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن شأنها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها — وقد يخالط الاعجاب بالنفس بالاعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهيء لها جنداً وأعواناً ، إلاّ أنه كثيراً ما ينقص من طهارتها ، وكمال نبلها ، أو قد يقضي عليها بما يدعو إليه الاعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذي من خالفه لانه يعد مخالفه أو حدوده مخالفاً وعدوّاً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قلّ حظه منها .

٢ — إذا أسفنا لِنَبْوة مَنْ نبا عنا فاتنا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده رمزاً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم في عشرتنا ورغبتهم في أن يكونوا معنا — فنعتز بالأصدقاء في أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهاً — أي أن الأسف لِنَبْوة صديق أساسها الأثرة وحب النفس — ولكن هذا الأساس لا يمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة فكثيراً ما يخالط الإيثار بالأثرة في النفس حتى عُدَّ مظهراً من مظاهرها إذ أن النفس تنشد في الإيثار شيئاً يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلباً نبيلاً .

٣ — في بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ؛ ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغيره وخلافه لنفسه إلاّ اذا تغيروا له وكان لهم مآرب في تغيير حكمهم عليه فاذا حدث ذلك ربما اتهموه بمخادعتهم وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به وسواء أفطنوا الى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعاً فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون معذورين في انخداعهم لأن الحياة تفرض التجانس في صفات النفس الواحدة كي يسهل فهمها وتناسقها . حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شيء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت في النفس الواحدة .

٤ — في بعض الأحايين يفضّل المرءُ أن يُحرَمَ من أن يُنسب إليه خير منعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التي دعته الى عمل ذلك الخير فيظهر من الأسباب غير ما يبطن

٥ — لعلّ أعظم النجاح في المهارة التي بها يقنع الماهر الناس إنهم لا يستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم شر فيهابونه ويتحاشون أذاه، وقد يسمون فيما ينفعه خشية واتقاء شره — ولكن لا يستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لم يتقنها ومن لا يعرف أساليبها ودقائقها ومستلزماتها. لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون ان يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه وقد يفعلون. فإذاً ليس من الكياسة ان يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافياً لنيل احترامهم وهيبتهم إياه.

٦ — من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة في الأدوية بمقادير لا تسم، على انه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة فقضى على فضله وفضيلته. إلاّ ان الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً، كما ان بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر.

٧ — من الصعب ان يحب إنسان إنساناً تجرد من كل دواعي الاحترام. ومن الصعب ان يحب إنسان إنساناً يبذّهُ ويشأهُ. فالنفس تأبى في أكثر الأحايين ان تحب من تجرد من كل دواعي الاحترام ومؤهلاته. ولكن إرثها تأبى ان تحب من تستصغر أمرها وتزدري شأنها عند استعلاء عظمته وعلو شأنه وان كانت تحترمه سراً أو علانية ولكن الحالات الشاذة قد توجد في الأمرين.

٨ — من الصعب ان تحترم النفس من لا خير له ولا شر.

٩ — كثير من الناس عدّوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير — وهذا يذكرنا قول هنري هين الشاعر الالماني «ان شجرة الانسانية قلما تذكّر بالزارع الذي سقاها ورعاها وإنما تذكّر بالعادي الذي حفر اسمه على جذعها بحديثه» — نعم ان معظم العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مسرف. وهذا مشاهد في حياة أمثال الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت. ولكن اذا كان الناس في بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يمشون بالأمن الى مراتب البطولة فلا غرو ان يفعل الناس ذلك مع من سحروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شراً كثيراً اذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء.

١٠ — ان العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بمعظم فضائلهم وانما يمتازون عنهم بمعظم ما يعملون وما يقولون — وهذه النظرة تفسّر السابقة. وليس معناها ان العظماء أقل

فضائل ، وإنما يعني أن الناس تتوقع خلوّهم من النقص خلوّاً تامّاً بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم . أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة أو ان يروزوهم بما يبرز نقصهم . أو ان ما يزاولون من عمل الخير يمازجه شرّاً ونقصاً .

من نظرات ليوباردي

١ — المكر وهو من جهود العقل والذكاء قد يلجأ اليه الماكر كي يخفي نقص عقله وذكائه وذكاء المكر هذا كثيراً ما يلجأ اليه الناس في البيئات التي طال فساد الحكام فيها دهراً طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف فترى فيهم الجهل وقلة النمو الفكري والسذاجة وشيئاً من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضاً نوعاً من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ — في بعض البيئات التي بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيراً جداً احتقره في مروءتهم من هم أحسن منه حالاً من الناس حتى يكاد يسقط وينزل في نظرهم عن مرتبة الانسان . واذا كان غنياً لم يكن آمناً على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده — وهذا صحيح في البيئات التي يثري فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعاً . وفي هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فانهم يجلون المجرم العابث بالامن حتى انهم قد يلبسوه صفات البطولة والعظمة وكثيراً ما تتم هذه الصفات حيث لا يجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم في أغراضهم . وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى وعهد سابق وأحوال في الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف في نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستعصية باقية .

٣ — في بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها في غيرنا فنسرع الى مدح تلك الأعمال والصفات — ويحمي المرء من المآثم والنقائص اذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم فاذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل . وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره عن ما يفعل مثله اذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره وان لم يكن بينهما فرق

٤ — أكثر ذوي الفضل كانوا على بساطة في السلوك والعادات . ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلة الفضل والعقل — وذلك اما لأن تلك البساطة تشابه في أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة وإما لأن البساطة تنافي التكلف الذي يغري بالظهور بالمظهر الذي يرضي رغباتهم وغرورهم . وهذا التكلف لهم منبعه مكر الانانية الذي يعدونه

أعظم مظاهر الفضل ومزاياه لأنه يحوطهم بما يشاءون وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصاً في الفضل والعقل .

٥ — مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأعراضها بعد اختبارها فانها ان أرضت له وابتسمت ودعته اليها انساها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع الى الالتفات بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد اليه من احتقرهم وساء رأيه فيهم فانه لم يعد لمعشرتهم اذا توددوا اله قل سوء رأيه فيهم .

٦ — يحسب المرء أنه إذا خاب حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته واذا نجح فرحوا بنجاحه . ولو كُشِفَ له عن مكنون سرهم لوجد فيه عكس ذلك في كثير من الاحايين — أو على الاقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعوراً بالمسرة يخالطه مخالطة النقيض للنقيض وبجانب السرور لنجاحه شعوراً بالامتعاض والاستضداد يناقضه ولكنه يخالطه وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويضر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرتها كل التغلب وان تغلبت على بعضها .

٧ — أكثر الناس لا يخجلون من الأذى الذي يسببونه للناس وانما يخجلون من الأذى الذي يسببه بهم غيرهم لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم — أما إذا خشي المرء ان يخجل إذا ظلم غيره فانه يعمل على ان يشرك الناس في ظلم المظلوم فاذا نجح في حمل الناس على مشاركته في ظلم المظلوم أمن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطغاة قديماً يتخذون من الناس رجالاً يكون اداة لتنفيذ ظلمهم حتى إذا لم يعد صالحاً لتنفيذه قضوا عليه واتخذوا غيره وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم .

٨ — الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لا ينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد ان يلحظه وجب عليه أن يودع الحياء وان يكون لسانه بوقاً يدعو الناس الى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو الموهومة أو ان يجد أناساً لهم رغبة وفائدة في ان يكونوا أبواقاً له . أما اذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله واعلانه فانه لن يرى إلا من يسرع الى إخفائه .

٩ — لو حُوسِبَ كل إنسان على ما يقوله في غيبة أصدقائه لما رضي ان يقولوا فيه مثل ما قال فيهم — فانه مهما كان مخلصاً لهم لا يسلم لسانه من سقطات في غيبتهم لا ترضيهم . وهو بالرغم من ذلك يُدْهَش اذا بلغه ان أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ويعدُّ نفسه مظلوماً لا يجد جزاء اخلاصه وصلاحه لهم في غيبتهم .

١٠ — قلما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم سيئاً الظن بهم إلا اذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أسوأ رأي في الناس مما يرسخ في النفس بقراءة الكتب التي تعلم

سوء الظن بالناس وإنما يكون هذا المقتبس من الكتب كلاماً غير راسخ في النفس لأن العشرة هي التي تُفطِّن الى سوء الرأي في الناس بسبب سرابة اختبارهم — وليس أحد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من المحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فإننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها وثقته بنفسه قد تدعوه الى حسن الظن والرأي، فيحسب ان الناس يعجبون بنفسه كما يُعجَب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما أن ذلك العطف يتفق وما في نفسه من العظمة المزعومة التي تقتضي أن يشمل الناس ببركات خيرها . واذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأي في الناس كان سحابة صيف عن قليل تنقشع .

من نظرات شوبنهور

١ — مما يجعل الانسان غير مُبالٍ لتعاسة التعساء ولا آبهٍ لها أنه يعتقد في نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك اذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه اذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا في حياتهم بؤساً فانهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم — على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأذوا واشمأزوا . ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيودون أن يتجاهلوا ما يؤذي حسهم وبصرهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، اذا نجح، قد يُعوِّدُ بعض الناس برودة الطبع والقسوة إذ يعد كل معاملة للناس قتالاً كالذي تعوده في الكفاح ويرى أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كي يضمد جروح الجرحى . فسببه هذا الرأي قائمة التهاون .

٢ — قد يكون سبب سعادة الانسان ونجاحه في الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائي عند رؤيتها وينشرح صدره فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده وقد يحسب الرائي بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والاحقاد وهي قد تكون كذلك وقد لا تكون — إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقته من غير حقيقة خلقية خلف ذلك التكوين أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر في إخفاء سريرته — فينبغي لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير في قصة هاملت « قد يُكثِرُ المرء من الابتسام وهو وغد » .. ولكن من ذا الذي لا يغبط صاحب هذه الابتسامة التي هي مفتاح القلوب والظهر .

٣ — بعض ذوي الكفاية العظيمة في أمور الحياة أو العبقرية لا يحاولون اخفاء عيوبهم ولا سيما اذا كانت من الاخطاء أو العيوب التي يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليل عليها . وهم لا يحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لانهم يرون أنهم قد أدّوا ثمنها من كفايتهم . وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لا بأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون ويتملكهم الغيظ اذا ظهرت أخطاؤهم ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلاّ لانهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم — بالرغم من ميل الناس إلى التشفي من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم — فرية من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء. وقد تبالغ كل طائفة في خطتها فالطائفة الأولى في رفع الكلفة والطائفة الثانية في استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لاثبات خلوها من العيوب ونقلها الى غيرها . وهناك طائفة ثالثة هي من أهل العجز يجمع آحادها ما يحصون أنه من عيوب ذوي الكفاية كي يتمسكوا في زمرتهم ويعدّوا منهم .

٤ — من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم أو منافس أو عدوّ حزناً كثيراً اذا افتقد ذلك الانسان خصمه الميت عند النجاح والظفر فيود لو كان حياً كي يرى كيف ظفر في الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفي من الميت يكون عند ذوي النفوس الدنيئة .

٥ — رغبة الانسان في أن يظل شهيراً بعد موته انما هي مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ — اذا غالى الناس في اعتناق رأي أو مبدأ أو مذهب فلا بد أن يعودوا في المغالاة الى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وانما مثلهم في الذبذبة مثل رقاص الساعة .

٧ — كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل ذلك كثيراً ما نخطىء في الحكم على الناس فقد ننسب الى انسان الفضيلة التي هي من نوع رذيلته أو الرذيلة التي هي من نوع فضيلته فيظن الحازم المتأني جباناً والمقتصد المدبر بخيلاً والمبذر المتلاف سخياً كريماً وسيء الادب صريحاً مستقيماً والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس الخ .

٨ — كثير من يجهلون عظم منزلة الانسان في العالم بسبب فضائله وعقله يتطرفون في القسوة في الحكم اذا حكموا وفي معاملة آحاد الناس إذ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الانسان التي أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الانسان ولا تواتيه والعقل كثيراً

ما يسخف أو يخطىء أو يسهو فمعظم منزلة الانسان في الكون بسبب ما هو معرض له في حياته من آلام ومصائب وعذاب وجهازه العصبي أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها. فاذا عاشرت انساناً لا تنظر الى ما في إرادته من شر وما في عقله من قصور وما في آرائه من سخف أو هوى فانك ان فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر الى آلامه من واقع ومنظور والى حاجاته وتعبه في الحصول عليها والى بواعث القلق في حياته فان من يتحمل كل ذلك حقيق بالعطف والمحبة والاعظام.

٩ — قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لا يجتمعان. ولكن قصور العقل قد يساعد على افشاء رذائل صاحبه فتحسب انها ناشئة منه. فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل اخفاء شره ويستطيعها فيحسب انه خال من الرذائل وان العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً. كذلك سوء الطبع قد يستهوي صاحبه فيمنعه من ادراك الحقائق التي لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله وقد تتمنع في حالات دون حالات.

١٠ — كل حيوان لا يقسو الاّ ليأكل أو ليدافع عن نفسه. أما الانسان فانه قد يقسو من غير داع الاّ التلذذ بالقسوة فهو كما سماه العلامة جوبينو صاحب كتاب الاجناس البشرية « الحيوان الذي بذّ كل الحيوانات في خبث طبعه وشره » واذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل فما ذلك الاّ كما يقول الفرنسيون في أمثالهم عينه أكبر من معدته — فالانسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلاّ التلذذ بالقسوة. وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة في عهد الحضارة والثقافة. وكأن شهوة القسوة تفرز في جسم الانسان سمّاً زعافاً يتجمع كسم الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كي يؤذي به بعض الناس أو الحيوانات. ولعل التلذذ بقسوة الالفاظ المؤلمة والنظرات التي تنم عن القسوة وبالمصائب والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هي عرض سيكولوجي مما كان يصنعه الانسان في أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سراً وعلانية من غير رادع. ومن العجيب ان بعض المرضى بعرض نفسي أو عقلي يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم. وما دام الانسان يقبل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبي وذو خيال وعقل فلا سبيل الى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو — إلاّ إذا أسعف طب الغدد الحديث — وربما كان تلذذ الانسان بالقسوة لذة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله. فهي نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس.

ع. ش